تراجيديا الحزن في الشخصية العراقية
قراءة انثروبولوجية

أ.د يوسف عناد زامل
عميد كلية الآداب

م.د زينب محمد صالح
جامعة واسط/كلية الآداب

Abstract

The present study endeavors seriously to conduct an analysis for the social frames and historical roots which led the relationship of antibodies (the finite Vs. infinite) into that shape of extremism , deformation , and mutual cancellation from both parties , more particularly , in the current stage in which Man lives within his society in Iraq today . Then , the devotion of this social pathology through theorizing it sociologically as if it were a sacred doctrine and a fact that is beyondanydispute .

The present study includes the following :

١. Importance , aims , and terminology of the study .
٢. Oppression and alienation in the Iraqi personality .
٣. The tragedy of oppression and alienation in the Iraqi personality .
٤. The triple of repression and the Iraqi personality (society , heritage , the state) .
٥. Man as a social entity (social oppression) .

ملخص البحث:-

يناقش هذا البحث قضية هامة جداً وان كانت تعاني شيئاً من التعقيد في استيعابها وتفاصيلها الأساسية من الإنسان المعاصر عامة الباحث في العلوم الإنسانية و الانثروبولوجية بخاصة،فالملاحظة الأساسية التي نحاول الإشارة إليها هنا و التأكيد على هيمنتها واقعاً على مجتمعنا تكمن في ان العولمة الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية واثر الانترنيت والصحف و المجلات اليومية بشكل خاص

كشفت للإنسان العراقي عن حقيقة التخلف الذي ظل يرزح تحته منذ عقود دلته على الحالة الدونية التي يعيش فيها عند مقارنته لنفسه مع الآخر المعولم...وجعلته يشعر بالهامشية و الاغتراب والسطحية عند مقارنته لنفسه مع الانسان في العالم المتقدم الذي يطالعه من خلال الفضائيات و الانترنيت و الافلام و غير ذلك.

والحقيقة اننا في المجتمع الحديث نعيش في ظل مؤسسات وانظمة تحيل الانسان الى كائن منفعل بالواقع وغير فاعل فيه،كائن يجد ان من اولى مهماته ان ينسجم و يرضخ ويتقولب ويرضى بحرمانه ككائن مقلد لامبدع،مصغ لا محاول،تابع لا قائد،مستسلم لمصيره لا مسيطر عليه وهي مؤسسات تريد للانسان ان يقنع بانه لا يملك القدرة و لا حتى الامكانية لكي يستجيب لتحديات العصر وليس من اختيار امامه غير القبول بالوضع الراهن.

وقد اصبحت الشخصية العراقية تعاني القهر الاجتماعي ومارافقها من عجز وانحلال لبعض القيم وما يرافق ذلك من تفكك اجتماعي و فساد الادارات والحياة اليومية وعدم فعالية الانظمة و القوانين والسعي لتحقيق الغنى المادي باقصر وقت ممكن وباي وسيلة..وبالتالي فان المجتمع العراقي كما هو شأن بعض المجتمعات العربية اصبح يهزم كل يوم ومن اول مواجهة لذا اصبح الشرق الاوسط (ومنه العراق)في أذهان الكثيرين من باحثي العالم المتحضر نموذجاً للجغرافية الظلامية التي ضحت وقدمت الفرد قرباناً للمجتمع.والتاريخ قرباناً للسلطان ,والمستقبل قرباناً للألهه و الاصنام.... من هذا نستنتج انه لايمكننا عن مجتمع مكون من توحد الافراد فأينما و كيفما اردتم البحث عن الفرد-الانسان- فلن تجد له اثراً(٢)؟لانه غير موجود بتاتاً,وليس الشرق الا تكدس للعشائر و القبائل والجماعات و العائلات والعنف المرتبط وظيفياً بها...

تشكل هذه القراءة محاولة اولى في طريق الكشف عن بعض الابعاد الكامنه في ظاهرة الغاء الفرد و استلابه وجعله ضحية يعيش القهر الاجتماعي كما حاولت رصد الابعاد نفسها في ظاهرة الصراع او لقاء الاضداد في جدلية المحدود والمغلق ((المجتمع،الدولة،الموروث)) في المجتمع العراقي المعاصر بأعتباره جزءاً روحياً فاعلاً من جغرافية العالم العربي،كما تسعى هذه القراءة بجدية تامة للقيام بتحليل الاطر الاجتماعية و الجذور التأريخية التي ادت الى ان تصل بعلاقة الاضداد(المحدود و المطلق)الى هذا الشكل من التطرف والتشوه والالغاء المتبادل من قبل الطرفين لاسيما في المرحلة الراهنة التي يعيشها الانسان مع مجتمعه في العراق اليوم،ومن ثم محاولة تكريس هذه الباثولوجيا الاجتماعية بالتنظير لها سوسيولوجيا وكأنها عقيدة مقدسة وحقيقة لاتقبل أي نوع من الجدل ،وسيتضمن البحث المحاور الاتية:-

اولاَ:أهمية البحث وأهدافه ومصطلحاته

ثانياً:القهر و الاغتراب في الشخصية العراقية.
ثالثاً:تراجيديا القهر والاغتراب في الشخصية العراقية.
رابعاً:ثلاثية القمع والشخصية العراقية(المجتمع،الموروث،الدولة).
خامساً:الانسان كائنا اجتماعيا(القهر اجتماعياً).

اولاً:أهمية وهدف ومصطلحات البحث:-

***اهمية البحث:-**

نبني على هذا امر مفاده ان اغتراب الانسان وانجراحاته في المجتمع العربي عامة،والمجتمع العراقي بخاصة،ليس سمة نفسية او نزقاً جامحاً او سطحة ذهنية بل هو انعكاس طبيعي لمجتمع مفكك يعاني شتى اشكال الانوميا،مصادر لجهات اخرى((لم يتسلم بعد مقاليد حكمه وادراته النفسية و الاجتماعية وحتى السياسية و الاقتصادية الى الان بيده))وهذا بالضبط ما دفع بنا الى عد مقولة((الفرد كائن اجتماعي))هي اتراجيديا اجتماعية تتضمن بشكل جدلي خطير كل اشكال القهر و التهميش و التصفية الكاملة للفرد في بوتقة (العائلة، العشيرة،القبيلة، الجماعة،الطائفة، القومية).

ان تراجيديا القهر الاجتماعي الكامنة في مقولة((الانسان كائن اجتماعي))او مقولة((الانسان الة اجتماعية))او الانسان الجسر الذي يؤدي الى المطلق))او حتى((الانسان يعبر الصحراء الاجتماعية))كل تلك المقولات فارغة و تعتبير غطاءاً نظرياً يكرس الواقع المتخلف كما يثبت شكل العلاقة المشوشه في ثنايا الفرد و المجتمع(المواطن و الدولة)،(الذات و الموروث)والتي باتت تهدد الوجود الانساني الحر الاصيل وتبقى مستحيلة على الفهم ما لم نجري تفكيكاً ثقافياً اجتماعياً تاريخياً لها واعتبارها ظاهرة باثو-اجتماعية تقبض بعنف على حقيقة العقل الفاعل وامكاناته للانسان في المجتمع العراقي الحديث،كما تخنق بأستمرار الفعل الانساني الذي من شأنه ان يعيد المجتمع المجروح بالعنف الى حالته السويه.

والحقيقة ان هذه المقولات كانت اعتمدت فعلاً كأنطلاقة نظرية وبديهيات سوسيو-ابستمولوجية لاغلب باحثي علم الاجتماع اليوم،انطلاقاً من مبدا ان الانسان جزء من مجتمع والتعامل مع الاخير على انه(مخلوق خرافي-مطلق)علة نفسه،وهو البداية و النهاية ولايمكن ان يكون غير ذلك اما الفرد فمجرد رقم صغير جداً في معادلة مطلقة هي المجتمع اما الفرد فهو(آلة)اجتماعية المجتمع اللامتناهي.

و من هذا المنطق المنزلق النظري ممكن ان يثبت اساساً متيناً ميتافيزيقياً يسمى (الفرد)جزءاً من كل هذا المجتمع،ولان الجزء ادنى منزلة من الكل اضحى الفرد بموجب هذه المنزلق ادنى منزلة من المجتمع.

هذه النتيجة تقطع علينا امكان القول بالعبارة الكاملة أي((الانسان كائن اجتماعي))والعكس صحيح أي ان القول ان المجتمع كائن انساني بوصفه تكوينا يخلقه اتحاد الافراد او ان المجتمع بنية انسانية.وهذا غير جائز بنظر البعض لان

الفرد،والانسان ببساطة شديدة غير قادر على ممارسة القهر في توجيه المجتمع ابداً وبالتالي فأن تعميمات نظرية كهذه في الاجتماع تسند تحليلاً على مدى قدرة طرف في ممارسة العنف و القهر بأتجاه الطرف الاخر(الشريك)المغدور المكون في الوقت نفسه،وهذا ما يجزم به اميل دوركهايم في اشارته الى ان كون المجتمع يمارس اشكالاً من القهر مسألة لا تقبل النقاش اصلاً.بالتالي ان القهر الاجتماعي هو وسيلة الفعل الوحيدة لدى المجتمع على اعضائه.

*** هدف البحث:-**

التعرف على القهر و الاغتراب الذي نالته الشخصية العراقية من خلال جدلية المحدود و المطلق استناداً الى مقولة الانسان كائن اجتماعي

*مفاهيم ومصطلحات البحث:-

سنوضح بعض المفاهيم المهمة جداً،التي تدعم هذه العلاقة الباثولو-اجتماعية(social pathology) بين الجزء و الكل في تراجيديا العلاقة الجدلية بين المحدود و المطلق،التي تكشف عن التشوه الذي اصاب طرفيها.

١-القهر:

القهر هو محاولة المجتمع التقليدي تصفية الفرد او على الاقل تغريبه و تحطيمه.من خلل ثلاثية القهر التحطيمية في المجتمع المعاصر والمعبر عنها بسلطة((الجماعة،الدولة،الموروث))والغريب بالامر ان صيغة التعارض و التقاطع بين الفرد والمجتمع متفق عليها بالاجماع في علم الاجتماع الكلاسيكي،بل ان دور كهايم يؤكد ،ان المجتمع يمارس اكراهاً او بالاحرى،تنوعاً كبيراً من الاكراهات على الافراد الذين يتكون منهم مسالة لا تقبل النقاش اصلاً،ومؤكداً دائماً على ان الاكراه-القمع- القهر هو وسيلة الفعل الوحيدة لدى المجتمع على اعضائه(٣)أما بورديور(٤)فيذهب الى ما هو اقسى من ذلك في اشارته الى ان المجتمع لا يكرهنا فقط عبر عرضه لمثاليات و نماذج،وعبر اصدار التدابير وتحريمها وعبر تقديم المعلومات ونشر المعتقدات وانما((عبر تأطيرنا مجتمعياً في توقع وتوجيه معينين))من هذا نستنتج ان ممارسة القهر بكل اشكاله الصادره عن المجتمع مع الفرد يفعل بشكل كبير هذه العلاقة الباثولو-اجتماعية(social pathology)

٢- الاغتراب:-

الاغتراب هو شعور الفرد بالعجز اما تعقد الانظمة الاجتماعية،فيما يذهب بودون وبوريكو فيقرران اخيراً،ان مشاعر العجز هذه تبدأ بالاضطرابات النفسية الجسدية المتولدة عن الحياة الحديثة وصولاً الى الانفجارات الاجتماعية العنيفة .

٣- التراجيديا:-

هي وضعية مازقية(٥)تلخص وجود الانسان المتخلف محاولاً،في سلوكياته وتوجهاته وقيمه ومواقفه،مجابهتها والسيطره عليها بشكل يحفظ له بعضاً من التوازن النفسي،الذي لا يمكن الاستمرار في العيش بدونه.

ويعرف البعض ان الوضعية المأزقيه(التراجيديا) هي اساساً وضعية القهر الذي تفرضه عليه الطبيعة التي تفلت من سيطرته وتمارس عليه اعتباطها ،والممسكون بزمام السلطة في مجتمعه،الذين يفرضون عليه الرضوخ.

ان مفهوم التراجيديا هذا البحث يتضمن نمطاً حياتياً مأساوياً ينتج عن ممارسة المجتمع المستمرة لكل اشكال القهر والدمج والسحق مع افراده والذي يتحول فيه الانسان الى كائن عاجز وعقيم ومنخلع ولا فاعل مهزوز وعنيف وغريب وبالتالي صرصار اجتماعي يبعث على الاشمئزاز والرعب والصدمة.

ثانياً:القهر و لاغتراب في الشخصية العراقية:-

يدخل القهر في علاقة فريدة من نوعها مع اليات الاغتراب(alienation) في العملية الاجتماعية ومن ثم يعيد كلاهما انتاج الاخر مقولة الاغتراب او الاستلاب (alienation) التي يعرفها المختصون في علم الاجتماع على انها انحلال الرابطة بين الفرد و الاخرين،اما الاجتماع الديني فيرى في الظاهرة المدروسة انحلال العلاقة او الرابطة بين الفرد و الالهة-المقدس-فيما ظل جان جاك روسو قلقاً من ان فعل التنازل الذي يؤسس له العقد الاجتماعي يمكن ان يتحول هكذا الى فعل سلب واضح تقريباً لنسبة كبيرة من اعضاء المجتمع،ويشترك معه في هذا القلق كثيرون،بخاصة هيجل وفيورباخ و ماركس،والاخير يرى ان العمل المستلب((يسلب الانسان جسده بالذات وكذلك الطبيعة الخارجية حياته العقلية وحياته الانسانية))(٦).فيما يرى(اريك فورم) ان المجتمع الرأسمالي يستلب الفرد بمقدار ما يجعل تحقيق الحاجات الاساسية امراً صعباً،مثل الحاجة للنشاط الابداعي واقامة العلاقات الاجتماعية مع الاخرين والحاجة الى تجذر ثابت و الحاجة الى تملك هوية كاملة والحاجة الى توجيه الحاجة لتملك اطاراً مرجعياً وبحاجة للفهم.وشخص (هربرت ماركيز) الاستلاب الصادر عن اوليات التكيف والقمع الدقيقة التي تتميز بها المجتمعات الصناعية.اما هابرماس فركز على ان البنى الاجتماعية تحرم الفرد من امكان تحقيق رغباته الخاصة،وترغمه على تحقيق رغبات الاخر،ولدى مانهايم تعود البنى الاجتماعية لترغم الفرد على فهم كيفية عملها(٧).

.والملاحظ ان لظاهرة الاغتراب تتفق على نقطة حاسمة هي انفصام العلاقة بين طرفي المعادلة الوجودية(المحدود)و المطلق(THE ABSOLUTE) ،وهذا الفصام نتيجة ممارسة القهر و الاستلاب الي تحيل الفرد الى رقم وليس ما هية و حقيقة،ويتفق الجميع في قلقهم عما ينجم من تهشم تلك العلاقة،من غير الرغبة في اعادة بنائها على اسس سليمة تكفل للطريفين استقلاليتها وكرامتها الوجودية،والنتيجة

فكرة"الوعي الخاطى المتشكل و المكون في عقل الفرد والناجم عن محاولات المجتمع لاستيعابه ودمجه قهرا مع القطيع الاجتماعي،،واذن نحن مقتنعون مع ما يذهب اليه ماركيوز فبالقدر((الذي يكون فيه الفكر و السلوك مرتبطين بالواقع المعطى،فأنهما يعبران عن وعي كاذب،ويساهمتن في الابقاء على نظام زائف للوقائع))(٨)وتنهض هذه المقولة على ان جوهر الانسان لا يتحقق خارجياً وفق الواقع المنظور و الملموس في المجتمع العراقي المعاصر،بل ان جوهر الانسان اليوم لا يتوافق ابداً مع الشكل الاجتماعي المطروح واقعياً وأنماطه المختلفة في الحياة الاجتماعية ما يجعله يعاني كثيراً في بحثه عن انجاز فعل التحقق هذا،او التوافق الخارجي بلا جدوى.فالاغتراب اذن هو رحلة عذاب يختصرها باحثو علم الاجتماع المعاصر في الجامعة العراقية اليوم بفرضية (ان الانسان كائن أجتماعي بين جوهر الانسان الداخلي وتحققه الخارجي)،ونتفق على انه تعبير يصف السيرة الاجتماعية التي تمنع الانسان ممارسته لانسانيته بفعل الفصل و القهر و الاستغلال.وهو ليس صفة نفسية او نزوقاً جامحاً كما يرى الدراج او شطحة ذهنية بل هو الانعكاس المادي لمجتمع لم يتسلم بعد مقاليد حكمه.

ثالثاً: تراجيديا القهر و الاغتراب في الشخصية العراقية:-

يعكس لنا المأسوي(التراجديدي)نوعاً من المتناقضات التي لاتحل في زمن معين كالتناقض بين المتطلبات الفردية و التاريخية والاستحالة العملية لتنفيذها،وتقضي هذه التناقضات الى انفعالات ومعاناة اليمة.ويعزو كارلس ماركس هذه الوضعية المأزقية او المأسوية الى حالة الصدام بين القوى الاجتماعية التي تفرضها قوانين التطور الاجتماعي.ويرى ماركس(٩)ان نشأة هذا الموقف المأسوي مرهونة بأدراك ممثلين معنيين للنظام الاجتماعي القديم،مصير طبقتهم،لكنهم لا يستطيعون ان يقطعوا صلاتهم بها ويتخذوا مواقف طبقية جديدة يكون المستقبل الى جانبها.

تنشأ التراجيديا وفق هذا التحليل حين يصبر الانسان في مجابهة مرة و قاسية مع الضرورة"بالمفهوم الماركسي"تماماً على العكس من"الحرية التي هي الركوب على ظهر الضرورة".ولدى البعض(١٠)ان التراجيدي ذو منشأ تاريخي،بمعنى ان نموذج انساني تطلعه وتمحوه الاحداث الكبرى للتاريخ.والمهم،بالنسبة لنا في هذا العرض،المرور في مجتمعاتنا مشيراً الى ان التراجيدي في الماضي كان نتاج تضخم الذات الفردية وتضخم الانا(EGO)"فلقد صلب عبد الله بن الزبير،واستشهد الحسين بن علي لأنه قال((من مثلي لا يبايع من مثله))ولانه ظل ملتزماً بهذا الموقف بالرغم من عدم توازن القوى.فيما قتل المتنبي لأنه اصر على ان الخيل و البيداء تعرفه.والمهم في هذا النموذج المنقول عن(الدكتور سامي اليوسف)ان التراجيدي ينطلق من طبيعة اخلاقية وكانه يعني لحظة مجد تلخص الحياة.لكن الامر مع الراهن مغاير تماماً ومختلف تماماً في مجتمعاتنا اليوم التراجيدي يسقط فيسجل لحظة سقوط مدمر(مدوى).وينتج عن ضمور يصيب الذات،كما ينتج عن تقلصها،انكماشاً،صغرها

قبولها بالهوان،انهزامها،ما يجعل من التراجيدي الراهن –المعاصر لا منطقياً،على الرغم من انطلاقته التي تتبدى للوهله الاولى منطقية منطلقة من مبدأ((تتحدد قدة الشئ على الفعل بمقدار ما يختزن من طاقة؟))(١١) ولان الانسان المعاصر في الحياة العربية لايمتلك هذه الطاقة أو ادنى درجاتها الامر الذي يجعل من تراجيدي بالمعنى الدقيق للكلمة.

ان التراجيدي هنا هو نرصد لحظة سقوط الانسان او تحوله الى مخلوق غرائبي مذعور ليس نتيجة مع الاخر (الجماعة ، الدولة ، الموروث) انما ناجمة – هذه اللحظة – عن عجزه في مصارعة هذا الاخر (المجتمع ، الدولة ، الموروث) كما انه نجم عن اعترافه الصريح بفوقيه هذا الاخر ودونيته هو فيسلك من هذا الاعتراف سلوكا غرائبيا لا يمت للانسانية بشئ فيندفع موجها – مدفوعا بكل وسائل التضييع الاجتماعي – والقهر النفسي الى الانضمام الى عالم الصراصير البشرية المخيف اذا" فالتراجيديا هنا في هذا البحث يراد بها تصوير عمليه اجتماعية (social process)ما يمكن ان يتمخض عنها في نهاية المطاف من حاصل طرفي المعادلة (السيد والعبد او الضحية والجلاد) في حكاية بكائية تنطوي وتكشف عن ممارسات كل من طرفي المعادلة مع الاخر في مسلسل القهر اليومي الاجتماعي الذي تمارسه الجماعة الجماعة والقيم والتقاليد الموروث في حق الانسان العراقي قبالة ذلك تكشف ايضا عن ردود الفعل السلبية للانسان في هذا المجتمع ولا اظن ان هنالك من ينفي حالة الصدام بين القوى الاجتماعية والطبقات في المجتمع العراقي الحديث (وان كانت هذه القوى والطبقات تعاني الى حد بعيد من الضمور والتقزم في حياتنا الاجتماعية لاسباب تأريخية – واجتماعية ليس ثمة مجال في الحديث عنها الان) بخاصة فوضى ما بعد ٢٠٠٣ وما افرز من تباينات طبقية اجتماعية حادة على مستوى النخب السياسية والمفهوم هنا حذر جدا فيما بينها وفيما بين قواعدها الاجتماعية ان وجدت اصلا افرز صراعات على مستوى الداخل – الداخل العراقي والخارج – الداخل كما افرز هذا الاحتلال والتحول الاجتماعي والسياسي المتمخض عنه صراعات معقدة جدا على مستوى بناءات الشخصية العراقية والاعتراك بين قطاعات الذات الواحدة في الشخصية العراقية الجديدة التي افرزتها تراجيديا العراقي اليوم

رابعاً:ثلاثية القمع و الشخصية العراقية (المجتمع،الموروث،الدولة):-

ثلاثية القمع (المجتمع ، الموروث ، الدولة)في المجتمع العراقي المعاصر نموذجا قطع المسافة التي تفصل بين اربعينيات القرن الماضي وستينياته لعنتان وانقلابان تاريخيان ((ابستمولوجيان)) جعلتا العالم اقرب كثيرا الى الهاوية وحولتا منذ ذلك اليوم الكرة الارضية قرية صغيرة جدا تتربع على فوهة بركان رهيب متى ثورته ؟ العلم عند الله اللعنة الاولى سجلت اربعينيات القرن الماضي ولطختها عندما دخل النازيون فرنسا وطوقت الدبابات والمدرعات وجيش الرايخ ارض الشانزلزية

فحدثت المأساة والصدة وتم الاجتياح الذي انتج ثقبا مهولا في الجدار الاجتماعي والثقافي والسياسي لاوربا انذاك نشأ عنه انقلابا ابستمولوجيا استند في التحليل السوسيولوجي حسب ما نظن على تغيير كبير اصاب معادلة الصراع الاجتماعي في القارة واظطراب موازين القوى الاجتماعية – السياسة المتصارعة انذاك اذ ذهبت الحرب العالمية الثانية بنموذجين طبقيين تمثلا بالنخبة السياسية التي اطاح بها هتلر عند دخوله فرنسا ونخبة ثانية اطاح بها الشعب بعد هزيمة المانيا في الحرب على يد ستالين والتحالف الدولي من جهة اخرى استعاد الشعب الفرنسي اثرها سيادته فيما افنت الحرب والصراعات المتمخضة عنه طبقة البروليتارية العالمية وبالتالي افقدتها ثقلها ووزنها الاجتماعي كلاعب مؤثر وفعال في الحياه الاجتماعية في اوربا انذاك ستينيات القرن الماضي سجلت انقطاعة تاريخية في سيرورة التاريخ ولعنه ثانية مع الدخول القومي في الساحة السياسية العراقية وتطويق دبابات القوميين وشرطتهم السرية وزارة الدفاع القديمة في التاسع من شباط من العام ١٩٦٣ تحديدا والفترة التي اعقبت اعدام الزعيم عبد الكريم قاسم رميا بالرصاص في احدى غرف الاذاعة العراقية الفتية انذاك والتي ساد بعدها وعلى اثرها الحياه الاجتماعية العراقية جو خانق من العتمة والانهزامية والانكسار والضبابية اصاب العقل الثقافي العراقي برمته بنوبات من الصرع الثقافي – الاجتماعي والسياسي المتكررة ومن ثم لازمته هذه النوبات الى اليوم نشأ عن هذا انقلاب ابستمولوجي اخر استند هو الاخر الى تغيير اصاب موازيين القوى المؤثرة اجتماعيا انذاك تمثل بتصفية اليسار العراقي وهو التيار الاكبر والاكثر اتساعا والمتأصل في الثقافة العراقية المعاصرة بل والمعبر الحقيقي عنها (١٢) واذا نظرنا في نتيجة الانقلابيين معا فكانا قد انتجا عمليا مرحلة تاريخية جديدة تمثلت وعبرت عن نفسها واقعياً باستيلاء اليمين الايديولوجي سياسيا – ثقافيا على المجتمع برمته في الغرب والشرق على حد سواء جسد الوضع الاخير وكرس ردة نفسية ((نكوص)) ونزعة متشائمة في جدار العقل الغربي والعربي على حد سواء وكنا قد رصدنا هذا التحول في صيرورة وتحولاتها الانتاج الادبي والثقافي الناتجة عن الانقلابيين في الشرق والغرب والنتيجة السوسيو – ابستمولوجية المعبر عنها في هذه المقابلة التاريخية افرزت نموذجا ونمطا انسانيا غريب الطوار انتشر بشكل مريب في الحياه الاجتماعية العراقية المعاصرة (وكان له ذلك الانتشار في الحياه الاجتماعية في المرحلة من الزمن التي اشرنا اليها قبل قليل) بخاصة في منتصف العقد الاخير من القرن الماضي واول القرن الحالي تميز بالعجز المطلق والاحباط تكالبت عليه وافترستة مشاعر العجز والفشل افترسته لدرجة جعلت منه صرصارا – اجتماعيا مثيرا لمشاعر المراره والاشمئزاز والقرف (١٣) الانسان المحدود الذي لا يمارس ""برغبة منه او من غيرها"" انسانيته والعاجز عن استثمار جوانب القوة والارادة والابداع في نفسه فقد شهيته على الحياه وقدرته على الفعل والمشاكسة المتضمنة في الفعل الانساني الاصيل في علاقته مع

الحياه الاجتماعية ذلك الانسان فقد لاسباب اجتماعية وسياسية وتاريخية واقتصادية قدرته على انتاج الانماط السلوكية المنتجة للحضارة كما فقد رغبته في البحث عن حياه افضل تضمن انسانيته وكرامته وقداسيته ومستقبلا امنا للجنس البشري

لقد تم تناول الموضوع من محورين هما :

الاول انطلاقا من رؤية سوسيولوجية تحاول رصد ورفض جذور اسطورة المجتمع الكامل المستقل عن الارادة والفعل الانسانين وتؤسس للكمال من حقيقة هذا الفعل الانساني وليس بالتخارج عليه كما يضن البعض هذا الفعل الانساني الذي تصفه اخر المنظومات الفلسفية المعاصرة على انه ((اثمن رأس مال في الوجود)) والبتالي فانه الاساس الحقيقي لمجتمع انساني متكامل وليس العكس ابدا "

اما المحور الثاني : فكان انطلاقا من شك معرفي لدى الباحث في ان تكون هنالك ثمة علاقة جدلية ابدية ((يصيرالانسان بموجبها جزءا فاعل ومخلوقا غير كامل امام الاخر بالمفهوم الهيغلي ((الفاعل المطلق والغاية في الكمال – في الحياة الاجتماعية الميتافيزيقية اليوم او يصير بموجبها جزءا غير فاعل امام الاخر المجتمع في الحياة الاجتماعية المعاصرة او يصير بموجبها جزء غير فاعل بل مرهون بارادة الاخر ((الدولة)) في الحياة المعاصرة وبالتالي فان البحث يرفض صيغة في معادلة الطرفين المشار اليها بصيغة ((المحدود والمطلق)) في هذا البحث ويتعامل معها على انها صيغة غير شرعية وغير مقبولة بل جدلية موهومة اريد بها اذلال ((الانسان)) المحدد باعتبارة (فرد ، مواطن ، ذات) امام الاخر المطلق (مجتمع ، موروث ، دولة) وسحقه نهائيا وتحويله بعد بروسس اجتماعي – سياسي الى صرصار اجتماعي – وطني – ديني في معامل معادلة القهر الاجتماعي .

خامساً:الانسان كائن اجتماعي (القهر اجتماعياً) :-

جرت العادة في اغلب البحوث و الاعمال السوسيولوجية الكلاسيكية والمعاصرة على حد سواء ان يتبنى اغلب المفكرين في السياسة و الاجتماع نماذج ذهنية-معرفية وقوالب قيمية مسبقة عن الانسان والفعل الانساني عن المجتمع و حركة المجتمع و التاريخ،ينظرون من خلاله ويحللون ثم يشيدون بناءاتهم النظرية.هذه النماذج تشكل في التحليل الاخير"صوراً عقلية يمكن ان تكشف او تسهم في الكشف عن الصلات القائمة بين جوانب الدراسة المختلفة وكيفية عملها".لكن المشكلة الحقيقية في تبني النماذج المعرفية لدى الباحثين تبدأ حين تتحول تلك النماذج الى معيق يحجب عنا وعنهم رؤية الوقائع المهمة والظروف الجديدة،التي يمكن ان تتمخض عن حركة الواقع الاجتماعي وسيرورته المستمرة والمنطلقة في تقدمها عبر الزمان و المكان،بل انها في أحايين اخرى يمكن ان تحجب عنا اكتشافنا لمجموعة مهمه جداً من العلائق الجدلية((الحقيقية))بين الاشياء و الظواهر قد تقلب معامل هذا الاكتشاف الى الضد تماماً في نتائج البحث وبالتالي قد تشوه مجالات الكشف.فتصير هذه النماذج المعرفية التي يسند اليها الباحث في مجالات السوسيو-ابستومولوجيا

((جامدة دخانية))ترسم جدراناً من العتمة تحجب عن رؤيتنا واهتماماتنا تلك الوقائع و الافكار الجديدة،والعلاقات الجوانية التي تنبض بها البناءات الاجتماعية في العمق من حياة المجتمع العراقي المعاصر.

النماذج التي نقصد كثيرة جداً وتختلف باختلاف الباحثين و الارض المعرفية التي يستندون اليها،حاولنا في هذا الرصد التعامل مع بعض منها،رغم خطورته وحساسيته لكننا اردنا القاء الضوء عليها تاريخياً وفلسفياً فقط،بمعنى انها قد تكون نماذجاً معرفية اكيدة((مجربة))لا يرقى الشك اليها لكنها مجرد قراءة نقد-اجتماعية.

ومن هذه النماذج المعرفية النظرية عرضنا في دراستنا هذه نموذجاً معرفياً في علم الاجتماع يشير الى ان المجتمع كائن مستقل، ذو طبيعة خاصة،يمثل الانسان الفرد جزءاً محدوداً منه غير فاعل بل ان الفرد يوجد اساساً لاشباع حاجات المجتمع،وان العادات الاجتماعية والقيم والتقاليد لها الاسبقية على الفرد وبالتالي فأنه يجب ان يلتزم بها ويخضع لها.ونماذج في الاجتماع الديني تدعم بعضها البعض متمثلة في نموذج ان الانسان نتاج تأريخي بل هو فعل تأريخي واعٍ للآرادة المطلقة المعلقة في السماء وان العامل الاقتصادي في الاجتماع الاقتصادي من العوامل الاساسية في صياغة المجتمع،وبالتالي فأن الفرد الذي يعمل في دائرة المجتمع وهو جزء من كل يخضع لارادة العوامل الاقتصادية.وبالتالي فأن المؤسسة الاجتماعية تملك القدرة على صياغة الانسان في مجتمع ما صياغة اجتماعية او حتى افنائه،مثلما تملك القدرة على تغريبه او تهميشه او تضييعه؟اما في الاجتماع السياسي فنرى النماذج المعرفية القاصرة نفسها وقد صبت في قالب اخر يعمق الهوة والتعارض بين طرفي المعادلة بشكلها الجديد، اذ تتحول الدولة من كيان سياسي يعني بتصريف الامور والشؤون العامة او كما حددها اهارولد لاسكي بأعتبارها مؤسسة للخدمة العامة،والة سياسية اشادها الانسان وتحركها عقول البشر وطاقاتهم،وليس لها قيمة تذكر بغير الانسان لكنها تتحول فجأة في مرحلة من التأريخ والصراع تجسيداً اعلى"للفكرة"كما ظن هيغل او الى نوع من الانسان السوبرمان الجماعي او على انها كيان له حق الموت والحياة على مواطنيها؟تتحول الدولة بالاستناد الى تلك النماذج المعرفية،من هيئة اريد لها خدمة الانسان الى هيئة تستعمل القوة و القسوة و الافناء معه،من هيئة اريد لها تنظيم الحياة اليومية للانسان الى هيئة تستعمل القوة و القسوة و الافناء معه،من هيئة اريد لها تنظيم الحياة اليومية للانسان الى هيئة تقصد تخريب الحياة الانسانية وتزوير الانشطه و الفعل الانساني لا بل ان مفهوم الدولة ارتفع الى اعلى درجات التجريد و الرمزية وتحولت الفكرة المطلقة عن الدولة الى حقيقة مادية ذات جوهر بل تم اعتبارها كائناً ميتافيزيقياً وكل اتجاه نفسها ورفعت الى حد المطلق واظهرت ميلاً الى ان تضع نفسها موضع الشعب ومن مجرد اداة لتأسيس العدالة تحولت الى جدار رهيب ذاتي التكوين بين الشعب و العدالة ثم تدريجياً تتحول رموزها الى الهة حاكمة بالاستناد الى ارادة المطلق

ويتحول الشعب الى مستبعداً محكوم وتصادر ارادته الخاويه.لتبصقه في الجهة الاخرى الى عالم صراصير اجتماعية مثيرة للشفقة...

الهوامش:-

١. ان تكون مثقفاً في الشرق الاوسط،مقالاً لأسيا دينز-تركيا،نشر في مجلة الشرق الاوسط الديمقراطي،ص٥٧.
٢. بركات حليم:اغتراب المثقف العربي،مقال،نشر في مجلة المستقبل العربي في العدد(ص١٠٧).
٣. المصدر نفسه(ص١٠٨).
٤. بوريكو،المعجم النقدي لعلم الاجتماع(ص٦٠).
٥. المصدر نفسه(ص٦٠).
٦. المصدر نفسه(ص٣١).
٧. المصدر نفسه (ص٣١).
٨. الدكتوراحمد قيس هادي،الانسان المعاصر عند هاربرت ماركيوز،بيروت،المؤسسة العربية للدراسات والنشر(ط١/١٩٨٠).
٩. حجازي مصطفى،التخلف الاجتماعي مدخل الى سايكولوجيا الانسان المقهور،لبنان معهد الانماء العربي(ط٥/١٩٨٩/ص٨).
١٠. روزنتال يودين،الموسوعة الفلسفية،ترجمة سمير كرم،بيروت-دار الطليعة(ط٥/١٩٨٩/ص٤٣٧).
١١-ليوسف يوف سامي ،رعشة المأساة"غسان كنفاني"،عمان-دار منارات.
١٢-انظر الدكتور حيدر سعيد في لقاء معه على قناة الحرة-تناول استذكار المبدعين والمثقفين العراقيين الذين فقدهم العراق في عام ٢٠٠٥.
١٣-فيودور دستوفسكي:رواية:رسائل من اعماق الارض.
١٤-انكلر الكس،مقدمة في علم الاجتماع،(ص٧٩).